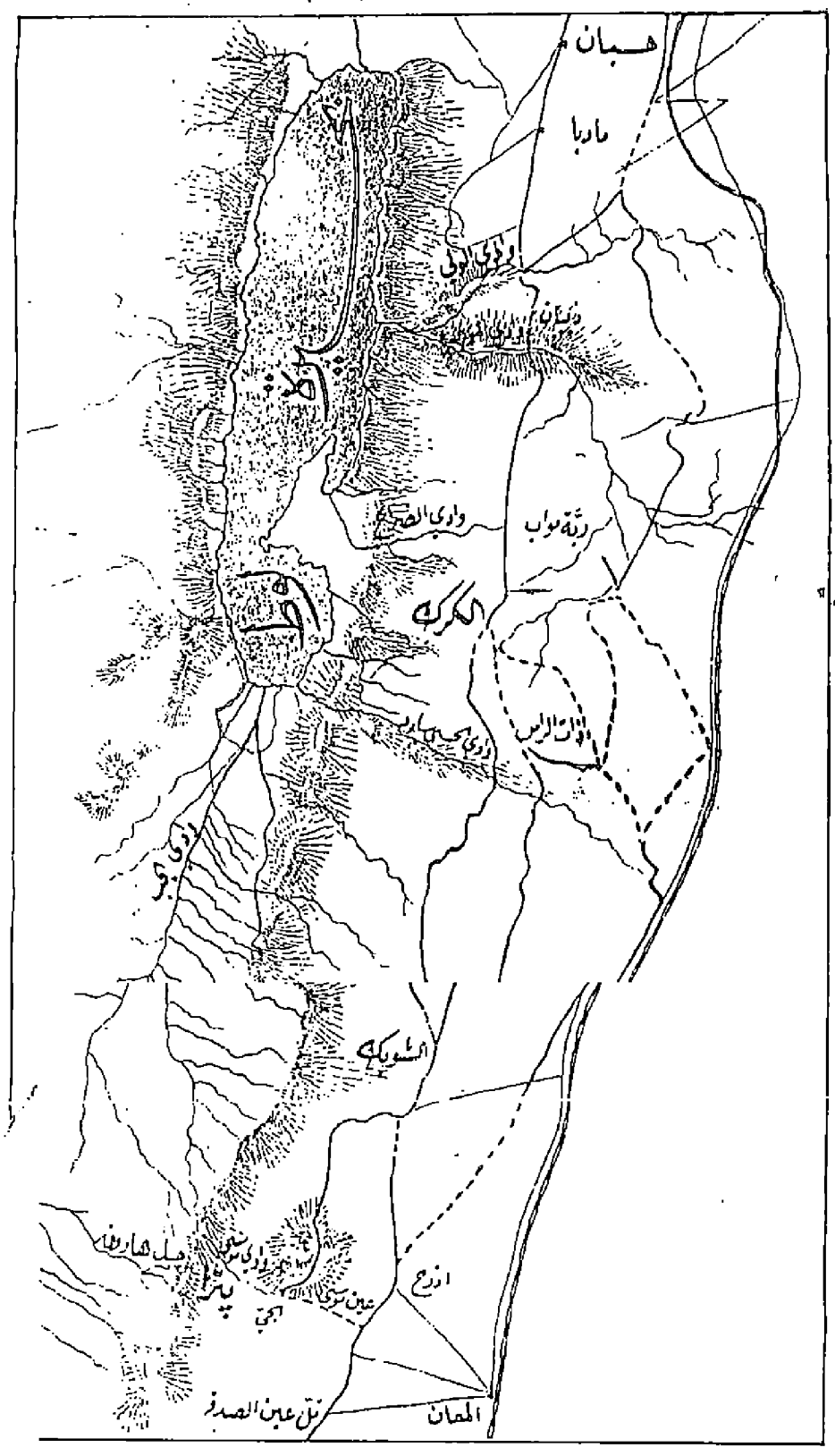

خارطة السكة الرومانية من مادبا الى بترا (وادي موسى)

السكة الرومانيَّة من مادبا الى عقبة [1]

نبذة للاب لويس جلابرت اليسوعي مدرّس الكتابات القديمة في المكتب الشرقيّ

انَّ ما وراء الاردنّ بلادًا واديةً وقفورًا واسعة تنبسط من الشمال الى الجنوب ممتدَّة من جهة مدينة مادبا الى خليج عقبة . وكان هناك للرومان في سالف الاعصار ايالةٌ كبيرة قامت مقام دولة النبط تركوا فيها آثارًا عجيبة لم يعرف السيَّاح من امرها سابقًا الَّا القليل . وفي القرن التاسع عشر قصد تلك البلاد كثيرٌ من العلماء والرَّحالين فاشاروا الى حسن تلك المآثر وعظمتها وفخامتها لكنَّ مساعيهم ذهبت مرارًا ادراج الرياح لما كانوا يلقون في وجههم من المشقَّات والعناء بين شذَّاذ قبائل تلك الامكنة ولقلَّة مياهها ومع هذا كانوا جمعوا من المعلومات والملحوظات والفوائد ما كان يستدعي نظرًا عموميًّا في تلك البلاد وتعريف احوالها اجمالًا

فني هذه السنين الاخيرة رأى العالمان الشهيران برونوف (Brünnow) وفون دومازفسكي (von Domaszewski) الوقت مناسبًا لمثل هذا المشروع الخطير لاسيَّما بعد ان نالت تلك الانحاء الامان التامّ بظلّ الحضرة العليَّة الشاهانيَّة أيَّد الله شوكتها . فعوَّلا على استقراء تلك الجهات لتدقيق النظر في ما كتبهُ اسلافهم وتنظيم اعلاماتهم وتتمَّة ملحوظاتهم ليضعوا في ذلك تأليفًا جامعًا على طريقة علميَّة واسلوب قريب المنال

وكانت رحلتهم الاولى الى الاصقاع الواقعة ما وراء الاردن في بحرّ السنة ١٨٩٧ ثم عادا اليها في السنة التالية بصحبة الاستاذ العلَّامة ي. اوتنغ (J. Euting) الذي وجَّه همتهُ الى الكتابات النبطيَّة اذ انَّ لهُ بين العلماء السهم الاوفر في معرفة الخطوطات السامية . وصرف العالم دومازفسكي نظره الى تحديد ذلك الاقليم الروماني القديم بوصف القلاع التي كانت مشيَّدة للدفاع عنهُ في خطوطهِ القصوى شرقًا وجنوبًا وكذلك

1) Die Provincia Arabia beschrieben von Rudolf Ernst Brünnow und Alfred von Domaszewski, I B.: die Roemerstrasse von Mâdebâ über Petra und Odruh bis el-'Akaba unter mitwirkung von Julius Euting. *Strassburg-Trübner*, 1904,g. in. - 4° xxiv - 530 abondamment illustré.

عُهد اليه وصف آثار بترا المعروفة اليوم بوادي موسى . اما الاستاذ برونوف فانهُ وقف نفسهُ لدرس جغرافيَّة تلك البلاد ورسم خرائطها وتعريف خواصّ تربتها كما انهُ بعد رجوع البعثة العلميَّة الى اوربَّة تكفَّل بمراجعة كل ما كُتب قبلاً بخصوص تلك البلدان وآثارها

وهذا تقسيم الشغل بين ثلاثة من العلماء الأثبات مما سهَّل العمل ومكَّن اصحابهُ من وضع تأليف نفيس ظهر آخرًا جزؤه الاوَّل الذي احببنا وصفهُ لقرَّائنا ليعلموا ما لهؤلاء الاربعين من الفضل في وصف الاثار الشرقيَّة واستخراج دفائنها الثمينة . والكتاب على اربعة اقسام تختلف اتساعاً وخطرًا حسب الموصوفات التي حاولوا وصفها

فالقسم الاوَّل وضعهُ الدكتور برونوف وفيهِ نظر اجمالي غاية في الدقَّة والوضوح عن جغرافيَّة البلاد الواقعة جنوبيّ ما وراء الاردنّ قبليّ وادي الزرقاء . وهو بحث يشمل معظم مساحة ذلك الاقليم على عهد الرومان ليس كلهُ وبالخصوص لم يتحرَّ الكتبة للبحث عن الحدود التي كانت تفصل عنهُ اقليم سوريَّة وهو مشكل عظيم لم يفكُّوا بعدُ عقدتهُ لما طرأ من الاختلافات على تلك الحدود بتمادي الاعصار

والقسم الثاني هو ايضاً من تأليف الدكتور برونوف . مدارهُ على السكك المتعدِّدة التي كانت تمتدُّ بين اورشليم وبلاد النبط جنوبيّ بحر لوط ومن عن شمالهِ . وقد اطال الشرح في وصف سكَّة مادبا الى مدينة وادي موسى وهي سكَّة كان انشأها تراجانوس قيصر وجعل لها اعلاماً وانصاباً من الحجارة كتب عليها انهُ فتح هذه الطريق ليوصل بين حدود سوريَّة وشاطئ البحر الاحمر (viam novam a finibus Syriæ usque ad mare Rubrum aperuit et stravit) وقد تتبَّع علماؤنا هذه السكَّة واتبعوا السكك الثانويَّة التي كانت تتَّصل بالسكَّة العظمى الممتدَّة على طول ذلك الاقليم . وقد درسوا في طريقهم كلَّ الآثار التي توفَّقوا لاكتشافها كالهياكل واطلال القصور وبقايا التحصينات والكنائس القديمة كما انهم جمعوا ما امكنهم من القطع المنقوشة وأعلام الطريق واقيمتها والكتابات اللاتينيَّة واليونانيَّة (١ والنبطيَّة بحيث لا نظنُّ انهُ

---

١) اعلم انَّ الكتابات اليونانيَّة واللاتينيَّة المدوَّنة في هذا الجزء كانت في الغالب معروفة قبلاً الَّا انَّ العلماء اخذوا منها رسوماً جديدة اصلحوا بها بعض اغلاط النسخ السابقة . اما الكتابات الجديدة التي لم تُعرف قبلاً فقد وجدنا انَّ رسم بعضها محلاً والبعض الآخر لم يُحسَن شرحهُ . راجع مثلاً الاعداد الآتية : ص ١٢٠ ثمَّ ص ٢٢١ (ع ٥) ثمَّ ص ٤٥٥ (ع ٢٢٨) ثمَّ ص ٤٦٠ (ع ٢٢٩)

فاتهم شيء يُذكر من عاديات تلك السكة الشهيرة . لاسيَّما انهم اضافوا الى معلوماتهم الخاصة كل ما سبق اليه اسلافهم من الاوصاف والافادات في القرن التاسع وهذه الشواهد بالانكليزيَّة والالمانيَّة والفرنسويَّة تضاعف ثمن هذا السفر الجليل ومنها ما ليس تحتهُ كبير فائدة الَّا انَّ الجامع احبَّ اثباتهُ لئلَّا يحتاج القارئ الى مراجعة كتب متفرِّقة بعضها غاية في الندرة فيجد في كتاب واحد كلَّ ما يفيدهُ عن تلك البلاد من تاريخ وجغرافية وآداب ولاسيَّما الآثار ووصف البلدان (١

اما القسم الثالث فهو اغزر اقسام الكتاب مادَّةً واكبرها حجماً ضمَّنهُ المسيو دومازقسكي وصفاً محكماً لمدينة بترا الشهيرة وآثارها الخطيرة . وهذا القسم لا يقلُّ عن ٣٠٠ صفحة زيَّنها كاتبهُ بنحو ٤٠٠ رسم او صورة بالطرائق التصويريَّة الحديثة البديعة . ومن يطَّلع على هذه الاوصاف والتصاوير يتبيَّن ما كان لمدينة بترا من المفاخر بحيث عُدَّت في الجنوب كصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها وتعدُّد آثارها . والمباني القديمة التي تُرى بقاياها حتى اليوم تبلغ المئتين عدَّاً وصفَّها المسيو دومازقسكي في ٢٢٠ صفحة واحصى عاديَّاتها الـ ٨٥٠ منها الهياكل الجليلة والدور الفخيمة والنوادي الواسعة والقصور والحمَّامات والمراسح مما يدلُّ على ترقِّيها في معارج الفلاح في ذلك العهد . واغرب من كل ذلك مدافنها العجيبة بحيث يظنُّ المسافر انها مدينة الموتى . وبعض قبورها على هيئات متنوِّعة غاية في الغرابة مباشرةً بالبرج المربَّع المرصوص (pylone) ذي الشُّرَف المدرَّجة الى العبد الأنيق المزدان بنقوش من اعلاه المنتهي بواجهة مستندة الى عمد . وقد افرد المسيو دومازقسكي فصلاً لهندسة هذه المدافن ودرس خواصَّها واشتقاق طرزها بعضها من بعض . وهو لعمري درسٌ خطير الشان مشحون بالفوائد قلَّما سبق الى مثله كاتب . وقد جعلهُ محسوساً ممسوساً بما ادخلهُ فيهِ من التصاوير المتعدِّدة التي تبيِّن ارتباط الاشكال بعضها وترقِّيها الهندسي مع اشتقاق بعضها من بعض وتأثير كل امَّة فيها فترى فيها آثار الهندسة المصريَّة واليونانيَّة والرومانيَّة والسوريَّة . وهذا مما يكشف النقاب عن احوال مدينة بترا وما طرأ عليها من التقلُّبات

وقد اضاف الى هذا الدرس الاثري خلاصة تاريخ تلك المدينة الشهيرة (ص١٨٨

---

١) وقد سرد الكاتب الفاضل فهرس الرحَل التي صُنِّفت في هذا الصدد وذلك من الصفحة ٤٨٠ الى ٥١٠ وهذه الرحل تبلغ ١٦٥ رحلة بين السنة ١٨٠٥ الى ١٩٠٣

—١٩٢) وبيّن انّ اصلها من النبط شيّدوها في نواحي القرن السادس قبل المسيح ثم حفلت بالسكّان الذين كانوا يتواردون اليها لعبادة الاله ذي شرى (Dusares) وكان لهُ هيكل كبير في جبل هناك غرف بجبل المذلّات . اما المدافن فجعلت في خلف ذلك الجبل تحت نظر الاله

وكانت هذه القبور الاولى على طرز القبور المصريّة بشكل شبه البرج المربع ثم سار التمدّن اليونانيّ بعد الاسكندر فاخذ البنّاة يزجون الطرز المصري بالطرز اليونانيّ وكانت المدينة لا تزال في نموّ حتى بلغت على عهد السلوقيين اوج عظمتها وصارت موردًا للتجارة ومحطًا لقوافل الشرق . ثمّ ظهرت دولة النبط بعد السلوقيين ودامت نحو قرنين الى ايّام الرومان الذين استولوا على بلاد النبط سنة ١٠٦ للمسيح في عهد الامبراطور ترايان . واكثر المباني الفخمة في پترا كالهياكل الجميلة والمدافن العجيبة ومرسحها الكبير قد شُيّدت في ذلك الوقت ونالت المدينة من الشهرة ما لا مزيد عليهِ حتى زاحمتها في اواسط القرن الثالث مدينة تدمر في ايّام الزبّاء ملكتها فصار لها النصيب الاوفى والحظّ الاعلى واضحت مجازًا لكل قوافل البادية بدلًا من پترا التي خمل عزّها شيئًا فشيئًا الى ان هجرها سكّانها وتركوها للموتى ينعق فوق مدافنها الغربان . ومذ ذاك الحين لم يَعُد لتلك الحاضرة رونقها السابق مع ما بقي فيها من الآثار المتينة بالف بانها

اما القسم الرابع من هذا التأليف فهو قصير جدًا (ص٤٢٩—٤٧٩) صاحبهُ السير دومازفسكي ايضًا وموضوعهُ اذرح وتتمّة السكّة الرومانيّة من پترا الى عقبة على ضفّة بحر القلزم . واهمُّ ما يتضمّن هذا القسم ما كتبهُ المؤلف في المعسكر الروماني الذي تُرى آثارهُ في اذرح . وهذه الصفحات ذات شأن وخطر تدلُّ على براعة كاتبها الذي عُرف قبلًا بكتاباتهِ في الجيوش الرومانيّة عمومًا والمعسكرات القديمة خصوصًا

هذا مجمل الكتاب الذي نحن بصددهِ وما وصفنا الّا بعضٌ من عدّ وقطر من بحر فانهُ حقيقةٌ طرفةٌ في بابهِ لا يقوم مقامهُ كتاب آخر مع كثرة ما فيهِ من الرسوم والخرائط المحكمة الصنع(١ بحيث يوازي خزانة كتب واسعة تحضُ كل عارفي اللغة الالمانيّة على

١) قد وقع في اسماء الاماكن والبلدان عدّة اغلاط اصلح قسمًا كبيرًا منها الدكتور ريس موسيل نزيل كلكتا سابقًا في المجلّة الشرقيّة النمسويّة Wiener Zeitsch. f. d. Kunde d. Morgenlandes, XVIII, 1904 (p. 379–402,

مطالعته وليس في هذا السفر الجليل سوى خلل واحد وهو ثمنهُ البالغ مئة فرنك . نعم ان هذا قليل بالنسبة الى نفاسة الكتاب لكنَّ من شأنهِ ان يصدَّ كثيرين من ورود مناهلهِ الصافية العذبة ومن اقتباس فوائدهِ الجمَّة

وعلى رأينا انهُ كان الاولى بان يُقتصر على قسم من الصور او ترسم بطريقة ابسط فيتمكَّن كثير من العلماء من اجتناء اثارهِ واجتلاء انوارهِ لاسيَّما ان بعض هذه الصور المرسومة بالفوتوغراف ليست جليَّة واضحة فالفائدة منها قليلة وإهمالها افضل من اثباتها . هذا ما يمنُّ لنا في امر الكتاب شاكرين الشكر الجميل لكل من سعى بنشرهِ

خبر ايقونة صيدنايا العجيبة

توطئة

ليس في الشرق صورة عجيبة تكرَّر ذكرها في التاريخ كصورة صيدنايا وهي قرية شهيرة من اعمال دمشق . وكانت هذه الصورة في كنيسة على اسم السيدة زعم البعض انَّها من بناء القيصر يستنيانوس في القرن السادس ورجَّح غيرهم انَّ اودكية زوجة الامبراطور ثاودوسيوس الثاني واخت الغديسة بولخاريه شيَّدتها قبل ذلك في القرن الخامس في جملة ما اقامت من الاديرة والكنائس . وذهب بارونيوس المؤرخ وغيرهُ الى انَّ بناءها كان في السنة ٨٧٠ للميلاد . وعُرفت هذه الكنيسة منذ زمن قديم بكنيسة الشاغورة او الشاهورة نظنُّها مشتقَّة من لفظة سريانية (صهيُونا) معناها الجبَّى او من (صهيُونا) بمعنى الكهف دلالةً على موقع الكنيسة . وقد زارها الزوَّار منذ زمن قديم وذكرها الرائر جيرارد في تاريخ سنة ١١٧٥ (راجع العدد ١١٨٧ من البشير في ٣٠ تموز سنة ١٨٩٥) . وقد اختلفوا ايضاً في تاريخ صورة صيدنايا العجائبيَّة فارتأى البعض انَّها احدى الصور التي صوَّرها القديس لوقا وامدتها الامبراطورة اودكية لمَّا شيَّدت كنيسة السيِّدة مع الدير اللاحق بها . ولا تسلم على اي سَنَد حمل هؤلاء الكتبة قولهم . وللطيِّب الذكر الاب بطرس مرتينوس اليسوعي فصل مطوَّل في تاريخ صورة صيدنايا وعجائبها ادرجهُ في كتابهِ المخطوط عن مزارات البتول في لبنان . وقد ذكر هناك انهُ طلب بكل حرص تاريخاً عربياً لهذه الصورة اشار اليهِ عدَّة كتبة منهم العلَّامة السمعاني في مكتبتهِ الشرقية (ج ٣ ص ٢٨٦ في الحاشية ع ٧) فلم يجد هذا التاريخ الذي منهُ قطعة في المكتبة الواتيكانية . وقد توفَّقنا الى وجود هذه الضالَّة منذ ثلاث سنوات في مجموع مخطوط حصلنا عليهِ في مدينة حمص . وهذا المجموع فيهِ عدَّة مقالات منها جدلية ومنها تعليمية ومنها سيامر وغير ذلك وهي مخطوط مختلفة بعضها بيد ديمتري استبريا (كذا) اللاذقاني